الفصل الرابع

الصهيونية فى العصور الوسطى

مع إحساسهم بتفوقهم العنصرى ، أو هكذا بدا لهم فلم يكن فى مقدورهم إحداث تغيير إيجابى مؤثر فى واقعهم فتقوقعوا فى « الغيتوات » وفى داخل أنفسهم ونتج عن ذلك أنهم صاروا أصحاب نفوس مريضة تضع أوزارها على كاهل « ياهو » إلههم ، ومنذ تفكير عزرا بذلك صار « ياهو » إلهًا قوميًا لليهود ، كما صارت اليهودية ديانة قومية ، كمنت فيها جرثومة صراعهم العنصرى مع كل الشعوب والديانات .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

الصهيونية فى العصور الوسطى

تمتد العصور الوسطى من القرن الخامس الميلادى ، إلى القرن الخامس عشر الميلادى وفى هذه القرون ، كان أغلب يهود الشتات يعيشون فى أوربا ، فبعد أن أنهت الإمبراطورية الرومانية تاريخهم فى فلسطين توزعوا فى أنحاء كثيرة من العالم، ولكن ظلت أوربا مستقرهم الأساسى .

كانت الإمبراطورية الرومانية تعامل اليهود على أنهم رابطة Collegium من حقهم أن يقيموا شعائرهم الدينية .

وفى سنة ٢١٢م أصدر الإمبراطور (كارا كالا) مرسومًا يمنح كل الأحرار فى الإمبراطورية حق المواطنة الرومانية ، وبهذا المرسوم صار أغلب اليهود مواطنين رومانيين ، إلا أنه تنوسى هذا المرسوم سريعًا ، فعوملوا كغرباء ، وأساء الرومان معاملتهم ، وساءت أحوالهم .

ولما دخلت الإمبراطورية الرومانية فى المسيحية ، وصار للمسيحية نفوذ فى الغرب ، تقوقعت اليهودية ، وانطوى اليهود على أنفسهم ، وفى الوقت نفسه كان علماء اليهود يكرسون أنفسهم فى كتابة « التلمود » وجمعه ، وتعبئته بحقد أسود على المسيح والمسيحية ، فكان هذا المسلك العقدى من اليهود أس البناء الصهيونى فى العصور الوسطى .

وفى الفترة من سنة ٣١٢ ـ ٣٣٧م أصدر الإمبراطور تشريعات تنظم وضع اليهود فى الإمبراطورية الرومانية ، وبمقتضاها لم يعد الدين اليهودى دينًا مباحًا ، أو رابطة لجماعة من حقها أن تمارس شعائر دينية لدين خاص بها ، ولكن قضت هذه التشريعات بأن اليهودية مذهب شنيع شائن ، ومن ثم يحظر على اليهود الزواج من المسيحيين ، أو امتلاك عبيد مسيحيين أو غير مسيحيين ، كما تم استبعادهم من العمل بالزراعة ، ومن الخدمة العسكرية ، ومنعهم من الاشتغال بالمهن المعروفة كمهنة الطب .

وفى سنة ٤٣٩م صدر قانون ثيوديوس الثانى Thedosian Code الذى يحرم على اليهود شغل وظائف بالدولة .

وهكذا حكمت روح الرومان التعسفية يهود الإمبراطورية ، وحكمت روح الكراهية اليهود فى نظرتهم إلى حاكميهم من المسيحيين ، الأمر الذى عبأ اليهود فى أنحاء الإمبراطورية بالصهيونية ، وساعد على استمرارها ودوامها فى العقل اليهودى.

وفى سنة ٤٧٦م سقطت الإمبراطورية الرومانية أمام زحف قبائل الشمال وفى هذه المرحلة ازدادت أحوال اليهود سوءًا خاصة بعد أن أعلن (السهندرين) أن المسيح ليس الماشيح اليهودى الحقيقى ، وأن الذى سيأتى فى آخر الزمان ، هو المسيح الدجال ، وفى الوقت نفسه رأى المسيحيون أن هدم الهيكل ، إنما كان تحقيقًا لنبوءة عودة المسيح [١] .

وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية حرم مجلس (كلير منت Clerment) فى سنة ٥٣٥م ومجلس طليطلة فى سنة ٥٨٩م تعيين اليهود فى مناصب يكون لصاحبها حق توقيع عقوبة على المسيحيين ، كما حرم مجلس (أورليان) فى سنة ٥٣٨م استخدام اليهود فى شغل المناصب العامة .

وفى سنة ١٠٩٩م لما سقطت فلسطين فى أيدى الصليبيين جمعوا ما كان بها من اليهود وأحرقوهم .

وفى سنة ١١٧٩م حرم مجلس (لاتيران Laterans) الثالث على القابلات المسيحيات أن يخدمن عند اليهود .

وأصدر مجلس أفينون Avignon فى سنة ١٢٠٩م قوانين الطهارة بتحذير اليهود والعاهرات من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع ، وأعادت القوانين الكنيسية الصادرة التى تحرم استئجار اليهود خدمًا للمسيحيين والتى تحظر على المسيحيين تبادل الخدمات مع اليهود تجنبًا لنجاستهم ، وإلغاء كل زواج تم بين مسيحيين ويهود .

---

(١) المسيرى : اليهود فى عقل هؤلاء ، ص ٩ .

وفى سنة ١٢١٥م أصدر مجلس لاتيران الرابع قرارًا يحتم على اليهود تثبيت شارة صفراء اللون فى مكان ظاهر فى ملابسهم لتميزهم عن المسيحيين .

وفى سنة ١٢٤٣م أُحرق جميع سكان (بلتز Belitz) الواقعة غربى برلين ـ من اليهود ، لأنهم دنسوا خبزًا مقدسًا .

وفى سنة ١٢٤٦م ندد مجلس (بيزير Beziers) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود .

وفى أثناء اضطرابات الحروب الأهلية فى إنجلترا فيما بين سنتى ١٢٥٧م وسنة ١٢٦٧م كادت المذابح تمحو يهود إنجلترا ، ثم أمر إدوارد الأول ملك إنجلترا بترحيل من كان باقيًا من اليهود ، وكان عددهم ١٦٠٠ يهودى فغادروا البلاد فى سبتمبر ١٢٦٧م مجردين من أملاكهم وأمتعتهم .

وفى سنة ١٢٩١م أصدرت الحكومة الفرنسية مرسومًا يفرض على اليهود مغادرة فرنسا قبل بداية الصوم الكبير ، ثم سمح لهم بدخولها فى فترة لاحقة ـ وبينما كانوا يعيدون بناء جماعتهم ، أمر فيليب الجميل فى سنة ١٣٠٦م بمصادرة ما كان لهم من ديون على الفرنسيين، كما صادر جميع أموالهم ومتاعهم إلا ما كان من ثياب وطعام ليوم واحد .

وفى سنة ١٤٩٢م تم طرد اليهود والعرب من إسبانيا كلها ، ثم طردوا من البرتغال فى سنة ١٤٩٧م ، وكان عددهم مائة وخمسين ألف يهودى ، لجأ أغلبهم إلى العالم الإسلامى ، خاصة فى شمال إفريقيا ، وبلاد الدولة العثمانية .

ولم ينج من اليهود من مذابح الأوربيين إلا الذين عاشوا فى إيطاليا وكانوا أقلية ، لأن الفاتيكان اعتبر اليهود الشعب الشاهد على ظهور المسيح ، ولكنهم مع ذلك وضعوا فى مكان خاص بهم أطلقوا عليه لفظ (الغيتو Ghitto) أى المعزل.

ومع ما أصاب اليهود من أهوال المذابح الأوربية ، ومع أنهم بقوا جسمًا غريبًا فى البلاد الأوربية ، فقد حققوا ثراء وملكوا الأموال من التجارة والمراباه ، وحافظوا على ذاتية عنصرهم فى أحوال كثيرة ضد الفناء والذوبان فى الأغيار .

ولقد ساعدهم على عدم التجانس مع هذه المجتمعات أن البلاد الأوربية لم تكن تسيطر عليها حكومات مركزية، وكان الإقطاعيون هم المسيطرون، فكان النبلاء يملكون الأقنان ، والإقطاعيات والجيوش التى يحافظون بها على إقطاعاتهم ، وفى ذات الوقت كان التجار يشكلون مجالس البلديات ، وكان القساوسة تابعين للكنيسة البابوية فى روما ، وكانت كل جماعة من هذه الفئات تتمتع باستقلالها الذاتى ، ولم يكن اليهود أعضاء فى أى من هذه الجماعات ، ولا منتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية ، ولذلك فقد صدرت المراسيم التى اعتبرتهم غرباء فى كل البلاد الأوربية التى كانوا يحلون بها .

ولأن اليهود لم يكن لهم حق امتلاك الأرض أو العقار ، أو العمل بالزراعة والصناعة ، فقد فرض عليهم ألا يكونوا إلا رجال مال ، وكان يطلق عليهم (أقنان بلاط) أى عبيد بلاط ، إذ كانوا يتبعون الملك والأمراء مباشرة ، وكانت الضرائب التى تفرض عليهم تقدر بقدر ما يمنحهم الملك أو الأمير من امتيازات يحققون بها مكاسبهم المالية .

وقد استخدم مفهوم (أقنان بلاط) لأول مرة بمرسوم فريدريك الأول فى سنة ١١٥٧م ثم أكده فريدريك الثانى فى سنة ١٢٣٦م » [1] .

ومع أن هذه المراسيم جعلتهم جماعات منغلقة إلا أنها حققت لهم حرية التجارة والتعامل بالربا ، واستغلال فقراء الناس من الأوربيين .

ومع أن اليهود عاشوا مكروهين من الشعوب، وكانوا دائمًا معرضين للمهانة، لكنهم ظلوا عنصريين متمسكين بتعاليم عزرا التى جعلتهم على الدوام منغلقين على أنفسهم لا يختلطون بغيرهم ، ولقد رسخ هذا الانغلاق ، وهذه العزلة فيهم منذ الأسر البابلى ، وبعد العودة منه ، عدم الرغبة فى معايشة الآخرين أو مشاركتهم الحياة .

ولكن عزرا مع هذا ألزم الذين لم يرغبوا فى ترك المنفى ، لأنهم يعيشون حياة أرغد ـ بالتبرع لإعانة العائدين يقول عزرا : « جميع ممالك الرب دفعها لى الرب

(١) المسيرى : اليهود فى عقل هؤلاء ، ص ١٤ .

إله السماء ، وهو أوصانى أن أبنى له بيتًا فى أورشليم التى فى يهوذا ، وكل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرب فلينجد أهل مكانه بفضة أو بذهب ، وبأمتعة وببهائم مع التبرع لبيت الرب الذى فى أورشليم » (عزرا ١/ ٣ ـ ٤) .

بهذا حدد عزرا ما سيكون خصوصية يهودية ، سواء لمن عادوا من المنفى ، أو الذين بقوا فى الشتات ، وفرض عليهم مساعدة من عادوا إلى فلسطين .

أما كيف فرض عزرا عليهم العزلة وعدم الاختلاط ؟

فعل ذلك عزرا بصيغة دينية فقال لهم : إن ذلك بحكم الرب ، لذلك لما تقدم رؤساء القبائل الأخرى بفلسطين لمساعدة العائدين من السبى ، بمشاركتهم فى بناء بيت الرب ، رفضوا ذلك منهم فقالوا : « نبنى معكم لأننا نظيركم نطلب إلهكم وله قد ذبحنا . فقال لهم رؤوس آباء إسرائيل : ليس لكم ولنا أن نبنى بيتًا لإلهنا، ولكنا نحن وحدنا نبنى للرب إله إسرائيل » (عزرا ٤/ ٢ ـ ٤) .

ويؤخذ من سفر عزرا ـ بصفة عامة ما يلى :

١ ـ الذين عادوا من المنفى إلى أرض الميعاد ، عليهم إقامة البناء (الدولة اليهودية) .

٢ ـ الذين لم يعودوا من المنفى ، وبقوا فى الشتات عليهم نجدة الذين عادوا بالتبرع بالمال والمتاع ، والطعام لبيت أورشليم (الشعب اليهودى) .

٣ ـ رفض دخول غير اليهود فى الشعب اليهودى ، وعدم قبول مشاركتهم فى الأرض (الوطن القومى) ، والعيش معهم فى سلام .

وهذه الأسس هى ذاتها قوانين عزرا فى الإصحاح التاسع من السفر نفسه قال: لما كملت بناية بيت الرب : « تقدم إلى الرؤساء قائلين : لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة ، اللاويون من شعوب الأراضى حسب رجاستهم من الكنعانيين، والحيثيين ، والفرزيين ، واليبوسيين ، والعمونيين ، والمؤابيين ، والمصريين ، والأموريين ، لأنهم اتخذوا من نسائهم ولأنفسهم ولبنيهم ، واختلط الزرع المقدس بشعوب الأرض » (عزرا ٩/ ١ ـ ٢) .

فقد شق على عزرا أن يختلط العنصر اليهودى بغيره من طريق الزواج لأن غيرهم نجس ـ حسبما صورت له نفسه الكارهة لغير اليهود ، وزرع اليهود [نسلهم] مقدس فلا يجب أن يختلط بغيره ـ هكذا رأى عزرا ولهذا قال هو نفسه : « والآن فماذا تقول يا إلهنا بعد هذا ؛ لأننا قد تركنا وصاياك التى أوصيت بها عن يد عبيدك الأنبياء قائلاً : إن الأرض التى تدخلون لتمتلكوها هى أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضى ، برجاستهم التى ملؤوها بها من جهة إلى جهة بنجاستهم . والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ، ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد لكى تتشددوا وتأكلوا خير الأرض ـ وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد ، وبعد كل ما جاء علينا لأجل أعمالنا الرديئة وآثامنا العظيمة لأنك قد جازيتنا يا إلهنا أقل من آثامنا ، وأعطيتنا نجاة كهذه أفنعود ونتعدى وصاياك ونصاهر شعوب هذه الرجاسات » (عزرا ٩/ ١٢ ـ ١٥) .

لقد ترسخ فيهم أنهم شعب فوق كل الشعوب ـ كما جاء فى سفر عزرا ، وكما جاء فى سفر إشعيا : « هكذا قال السيد الرب ها إنى أرفع إلى الأمم يدى ، وإلى الشعوب أقيم رايتى فيأتون بأولادك فى الأحضان ، وبناتك على الأكتاف يُحملن ، ويكون الملوك حاضنيك ، وسيداتهم مرضعتك ، بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك » (إشعيا ٤٩/ ٢٢ ـ ٢٣) .

كان أول تبلور حقيقى لمبادئ عزرا الصهيونية فى حياة (الغيتو) التى عاشوها فى القرون الوسطى ، فقد كانت تحقيقًا لرغبة دفينة فيهم لتعزيز صهيونيتهم ، وإبراز عنصريتهم النفسية ، واستجابة للحكومات التى رأت أن فى اجتماعهم بمكان واحد يحقق مصلحة سهولة التعرف عليهم ، والوصول إليهم .

وكان الإيطاليون أول من حقق لهم هذه الرغبة فسمحوا لهم بتأسيس أول (غيتو = Ghitto) فى مدينة البندقية سنة ١٥١٦م ثم انتشرت بعد ذلك الغيتوات فى مدن أوربا الكبرى ، وكان الغيتو بمثابة دولة داخل الدولة التى يعيشون فيها ، ولقد اعترفت بعض المدن الأوربية المهمة بهذا المفهوم »[١] . ففى مدينة (براغ) كانوا يسمون الغيتو دولة اليهودية Juden Stat .

---

(١) خالد القشطينى : الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية ، ص ١٧ .

وكان انعزالهم فى الغيتو من العوامل المهمة التى أبرزت المسألة اليهودية ، فى كتابات المفكرين من اليهود ، ومن غيرهم فى أوربا ، ومن الغيتو خرجت مصطلحاتهم الدينية ذات الدلالات السياسية والاجتماعية فى (الجالوت = المنفى) و(نجيد = رئيس اليهود) و(قهال = مؤسسة يهودية إدارية . . . إلخ) .

ولما جاء عصر التنوير ، ثم الثورتين : الأمريكية والفرنسية فى القرن ١٨ انهدم الغيتو وتحول اليهود إلى مواطنين مندمجين ، وإن ظلوا يفرزون أفكارًا دينية ذات مدلول سياسى فرضت نفسها على مسيرة اليهود بصفة عامة والحركة الصهيونية بصفة خاصة على الوجه التالى :

١ ـ فى الأسر البابلى دعا إرميا إلى دمج اليهود فى الشعب البابلى ، وقبول التعايش معه ، وقد لبى أغلبية يهود الأسر هذه الدعوة ، وذابوا فى الشعب البابلى وزاوجوهم .

٢ ـ دعا عزرا إلى العودة إلى فلسطين ، وكرس حياته لكتابة التوراة على أساس أنه يعظم العرق اليهودى، ووضع القوانين التى عرفت بقوانين عزرا ، وأهم ما جاء فيها تحريم الاندماج مع غير اليهود، وتأكيد أهمية توريث الدم اليهودى .

وصارت قوانين عزرا القاعدة الأساسية للتلمود التى عززت النظرة العنصرية فى معاملة غير اليهود ، معاملة مغايرة لمعاملة اليهودى مع غير اليهودى ، وقد أشار ماكس فيبر عالم الاجتماع اليهودى إلى « أن عزرا وضع بعد العودة إلى أرض فلسطين ما يمكن تسميته بقانون عزل اليهود عن الآخرين (١) .

كما أن عزرا استطاع أن يصور حقيقة مشاعر اليهود نحو غيرهم فى انفرادهم بأنهم ورثة إبراهيم عليه السلام ، وأنهم شعب الله المختار للأرض الموعودة ، بالقرب من جبل صهيون، وهى المشاعر التى ظلت ملازمة للعقل اليهودى وقبلته له إلى الآن.

٣ ـ إن اليهود حافظوا على هويتهم ، وتمسكوا بزعم العرق المتفرد سواء كانوا من أبناء يعقوب ، أو من الخزر ، أو من اليمن أو الهند أو الفلاشا .

---

(١) خالد القشطينى : المرجع السابق ، ص ١٣ .

٤ ـ تتشبه دعوة (مندلسون) الإصلاحية ، اليهود إلى الاندماج مع الشعوب الأوربية التى يعيشون فيها ، بدعوة إرميا إلى الاندماج فى الشعب البابلى قديمًا .

٥ ـ وما أشبه (تيودور هرتزل بـ عزرا) فى تأكيد كل منهما لحلم صهيون بتجميع اليهود فى وطن قومى لليهود .

ولا تزال قوانين عزرا تسيطر على العقل اليهودى وروحه حتى الآن : للمتدين أو للعلمانى على السواء ، فهو لا يزال يسير بهدى مواقفه القديمة يقول بن جوريون الصهيونى العلمانى : « إنه لشعور مدهش ينتابنى كحفيد لتلك القبائل التى أصبحت رماحها ونبالها وأقواسها موضع العجب ، لقد شعرت بأنى أكتب فصلاً جديدًا فى التوراة هنا فى هذا المكان، فصلاً عظيمًا خياليًا مثل جميع الفصول السابقة ، أورشليم ، وحبرون ، وسخيم ، ووادى نحسون ، وجميع الأراضى الموعودة » (١) .

ومع أن قلة قليلة جدًا من يهود الشتات عادت إلى فلسطين ، فقد آثرت الغالبية العظمى البقاء فى الشتات ، ولكن أيضًا تدعم بمالها يهود العودة ، بل إن كثيرين من يهود العودة فضلوا السير فى ركاب الفاتحين مثل (قورش الفارس) فلما سقطت الإمبراطورية الفارسية ، استقروا فى البيئات الهللينية وكونوا بها جاليات كبيرة مثل جالية الإسكندرية ، وجالية روما ، ولم يكن مبعث تنقلهم فى ركاب السادة الفاتحين ، التشتيت الإجبارى (الدباسيورا) بل الهجرة الاختيارية بدافع المغريات الاقتصادية » (٢) .

وهؤلاء الذين ظلوا فى الشتات منذ زمن عزرا إلى اليوم يمثلون حصن القومية اليهودية ودعامتها الاقتصادية والسياسية ، وخير مثال معاصر دور يهود الولايات المتحدة فى دعم الكيان الصهيونى ماليًا وسياسيًا وعسكريًا ، وعقديا .

ومن زمن الأسر البابلى حتى وصول الرومان إلى المنطقة العربية ـ زهاء

---

(١) خالد القشطينى : المرجع السابق ، ص ٣٩، ٤٠ نقلاً عن منشورات كيبوتز عين هارود .

(٢) فؤاد محمد شبل : مشكلة اليهود العالمية دراسة تحليلية لآراء توينبى ، ص ١٦، المكتبة الثقافية، العدد ٢٤١ فى مايو ١٩٧٠م .

ستمائة سنة حاول اليهود بعث تأسيس مملكة داود، فكانت محاولاتهم تبوء بالفشل وتشتيت جديد ، ومن هنا تطورت صورة المؤسس لهذه المملكة ، فلم يعد ملكًا ، بل صار مسيحا ، ثم صار الإله نفسه ليتولى دور مخلص اليهود ، ومؤسس دولتهم الذى يجعل اليهود سادة الشعوب ، ويجعل سائر الشعوب عبيدًا لهم . (إشعيا ٤٩/ ٢٢ ـ ٢٣) تحدوهم صفاتهم التى لم يقدروا على التخلص منها مثل:

١ ـ إحساس عميق بالمهانة أصاب النفس اليهودية .

٢ ـ الآثار النفسية ، بسبب إحساسهم بأنهم عنصر غير مقبول ، سيئ الطوية خبيث المقصد ، يجيد استغلال أهل البلاد الأصليين ، خاصة الفقراء منهم .

وفى القرون الحديثة فى القرن ١٧ تحديدًا بلغ الغرب الأوربى حدًا كبيرًا من الثراء الاقتصادى والثقافى ، جعله لا يخشى من مهارة اليهود فى أعمال المال والمراباة ، ففتحت لهم إنجلترا أبوابها فى أثناء حكم كروميل (١٦٥٣ ـ ١٦٥٨م) وهى البلد التى طردوا منها فى زمن أدوارد الأول (١٢٧٢ ـ ١٣٠٧م) وكانت هجرتهم إلى إنجلترا فاتحة هجرة إلى الغرب الأوربى فى القرن ١٧ ثم إلى الولايات المتحدة ، وكانت هذه الهجرة من اليهود الأشكناز فى الغالب ـ وكانوا يتميزون عن السفارديم بالقدرة على الحركة والتقدم فى مجالات المال والتنظير والسياسة ، كما كانت لهم القدرة على السيطرة على مقدرات اليهود فى الشتات فى أوربا والولايات المتحدة ، وهم الذين حافظوا على طبيعة العناصر النفسية المكونة للشخصية اليهودية.

وكانت البروتستانتية بمثابة انفراجة ليهود أوربا ؛ إذ فتحت البلاد البروتستناتية أبوابها للهجرة اليهودية ، لأنها نظرت إلى اليهود على أساس أنهم من ضحايا الاضطهاد الكاثوليكى خاصة إنجلترا وهولندا ـ تم هذا قبل الثورة الفرنسية التى رفعت شعار العقل والاستنارة ، والمساواة بروح علمانية ، فأفسحت المجال لليهود لكى يجدوا لأنفسهم مكانًا مرموقًا فى الغرب ، وتدفقت الهجرات اليهودية من الشرق الأوربى إلى الغرب الأوربى ؛ لأن كل الأحداث العظمى فى القارة الأوربية تؤذن بأن ناصية العالم ستكون فى قبضة الغرب ، ومنذ سنة ١٨٨١م لم

تتوقف الهجرة من روسيا وبولندا وليتوانيا وكانت هذه البلاد تعد خزان اليهود الكبير ، ثم بعد ذلك توجهت موجات الهجرة إلى الولايات المتحدة .

وفى كل الأحوال فإن اليهود ـ منذ الأسر البابلى حتى القرن العشرين ، كانوا على مستويات هى :

١ ـ قوم مكروهون يستحقون الاضطهاد .

٢ ـ كان أهل البلاد يضطهدونهم ، ولكن كانوا يحتاجون إليهم لكى يقوموا بأعمال يجيدونها ، كأعمال المال والتجارة ، والربا .

٣ ـ أنهم كانوا خطرًا ؛ لأنهم قاموا بإدارة أعمال سوداء ، وإثارة القلاقل .

ومع إحساسهم بتفوقهم العرقى ، أو هكذا بدا لهم ، فلم يكن فى مقدورهم إحداث تغيير إيجابى مؤثر فى واقعهم فتقوقعوا فى (الغيتوات) وفى داخل أنفسهم ، ونتج عن ذلك أنهم صاروا أصحاب نفوس مريضة تضع أوزارها على كاهل (ياهو) إلههم دون العالمين ، ومنذ تفكير عزرا بذلك صار (ياهو) إلها قوميا لليهود ، كما صارت اليهودية ديانة قومية ، تميزهم على سائر الشعوب ، وفيها كمنت جرثومة صراعهم العنصرى مع بقية الشعوب والديانات ، ومع أنهم أخذوا عن المصريين التوحيد بحسب ديانة (آتون) وعادة (الختان) إلا أن التوراة تصورهم شعبًا أرقى من المصريين ، مما أدى إلى اضطهادهم وإخراجهم من مصر ، ثم بعد عدة قرون تعرضوا للأسر الآشورى ثم البابلى ، ثم وقعوا تحت الحكم الفارسى ثم الرومانى الذى بثهم فى العالم الهللينى ثم الرومانى ، وعندما جاءت المسيحية حاولوا قتل المسيح ، فصاروا أعداءها ، ومع كل هذا اعتقدوا بأن إلههم سيمنحهم الخلاص ، وبأنهم سيتملكون رقاب البشر ، كما فى سفر إشعيا (٤٩/ ٢٢ ـ ٢٣) فزادت كراهية الشعوب لهم .

ومع أن التحول البروتستانتى فى المسيحية الغربية ، ثم عصر التنوير والثورة الفرنسية قد منحهم الحرية، وأعطاهم حق المواطنة ، إلا أنها كانت منحة منقوصة، لأنها اصطدمت بظهور الروح القومية الصارمة فى أوربا ، المعضدة ببحوث (جوبينو) فى الأعراق ، ثم نظرية (دارون) فى أصل الأنواع ، وأفكار (نيتشه) عن الإنسان الأعلى Superman .

وإذا كانت الليبرالية الغربية قد بلغت منتهاها فى القرن ١٩م وجعلت القوميات تقتصر على الشعوب الأوربية وحدها ، فقد كان رد الفعل العملى لهذه القومية الغربية، أن يجعل اليهود لأنفسهم قومية خاصة على غرار القومية الأوربية ، تأخذ شكلها العنصرى فى ظاهرها ، أما باطنها فيحتوى الموروث اليهودى بكل ما يحتويه من أنانية توراتية ، وحتى العلمانيين من اليهود لم يكونوا منفصلين عما أحدثته اليهودية الحاخامية من أزمات دينية فى تكوين اليهود النفسى والعنصرى ، ولهذا فقد كان انتقالهم من وضعهم كمجموعة دينية فى المجتمع الأوربى إلى وضعهم الجديد كمواطنين فى المجتمع الحديث لم يؤد إلى استقرارهم ، ولم ينجهم من عدم إحساسهم بالغربة داخل أنفسهم، إلا تحولهم إلى ما سمى « المشكلة اليهودية» داخل المجتمع الغربى « وإذا كان المثل الأعلى فى التأثر فى الغرب ، تحويل الفرد اليهودى إلى برجوازى غربى يدين باليهودية فى القرن ١٩ ، فإن المثل الأعلى البديل له ، هدَفَ إلى تجميع اليهود من الشتات فى دولة قومية »[١] تلك التى لم تكن إلا انعكاسًا للفكر القومى الأوربى ، واستجابة له .

(١) فؤاد محمد شبل : مشكلة اليهود العالمية ، ص ٨٢ .

obeikandl.com